

رياض الصلح

١٨٩٤ - ١٩٥١

رياض الصلح زعيم وطني لبناني كبير. إنه أحد صانعي استقلال لبنان في عام ١٩٤٣. وهو أحد الوجوه البارزة في الحركة القومية العربية منذ مطلع القرن العشرين، سواء في ظل السلطنة العثمانية، أم في ظل الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا. واستحضر اسمه اليوم يرتدي أهمية خاصة، بالنظر لما يجري في لبنان من أحداث تذكّر بمرحلة الاستقلال الأول، ويستدعي بناء ركائز هذا الاستقلال على أسس جديدة، أكثر وضوحاً في الانتماء إلى الوطن اللبناني، وأكثر تحرراً من المؤثرات الخارجية العربية والأجنبية، التي شوّهت معنى الوطنية ومعنى القومية وشوّهت معنى الوطن والدولة الحاضنة له ومعنى الانتماء إلى الوطن وإلى الدولة المدنية الحديثة.

لم يعيش رياض الصلح طويلاً. وُلد في عام ١٨٩٤ واغتيل في عام ١٩٥١. لكن هذه الأعوام السبعة والخمسين من حياته كانت حافلة بالنشاط السياسي، لبنانياً وعربياً، وغنية بالتجارب، وبالغة الأثر والتأثير في مجرى الأحداث التي شهدتها المنطقة، لا سيما في سوريا ولبنان عشية حصول البلدين على استقلالهما، وفي المرحلة التي تلت ذلك.

وقبل الدخول في تفاصيل الحديث عن سيرة هذا الزعيم اللبناني العربي الكبير، لا بد من التوقف عند المرحلة المتصلة بمعركة الاستقلال، التي كان له دور أساسي فيها.

كان من الصعب على رياض الصلح، القومي العربي والداعية منذ مطلع شبابه للوحدة العربية، ولوحدة بلاد الشام كمرحلة تسبق تحقيق تلك الوحدة (سوريا ولبنان والأردن وفلسطين)، كان من الصعب عليه أن ينتقل إلى الاهتمام بلبنان، في السنوات الخمس عشرة التي أعقبت إنشاء لبنان الكبير في عام ١٩٢٠. فقد كانت همومه واهتماماته منصبّة بالكامل على العمل في سوريا ومع القيادات الوطنية السورية، ومع الثورة التي قادها سلطان باشا الأطرش في عام ١٩٢٥ ضد الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، بقرار من عصبة الأمم. وكان رياض ينتقل بين دمشق وبيروت والقاهرة وباريس وجنيف، منفرداً

أو في إطار وفد سوري مشترك، أو وفد سوري لبناني فلسطيني مشترك، أولاً لرفض تقسيم بلاد الشام، ثم لرفض الانتداب على هذه البلاد، فرنسا في سوريا ولبنان، وبريطانيا في الأردن وفلسطين. وقد كانت تلك المرحلة غنية بالأحداث، وبدور رياض الصلح فيها، سواء في المظاهرات التي شارك في الدعوة لها مع آخرين من قادة الحركة الوطنية الاستقلالية في كل من دمشق وبيروت، أم في المنتديات الدولية، لا سيما في باريس وجنيف وبروكسل. وكان من أبرز تلك المعارك التي شارك فيها رياض معركة الدستور في عام ١٩٢٦، التي انتهت بإقرار أول دستور للجمهورية اللبنانية في ذلك العام بالذات، والذي أصبح لبنان بموجبه جمهورية ذات نظام ديمقراطي تعددي، ومجلس نيابي منتخب، ورئيس جمهورية منتخب من البرلمان. وكانت تربط لبنان الجمهوري بالدولة المنتدبة معاهدة محددة في الزمن، ينتقل لبنان في نهايتها إلى رحاب الاستقلال.

وتجدر الإشارة هنا إلى عام ١٩٣٦ الذي احتدم النقاش فيه حول صيغة لبنان وحول حدوده وحول علاقته بسوريا. ومن المعروف أن مؤتمراً عقد في ذلك التاريخ يعرف بمؤتمر الساحل، كان معظم المشاركين فيه من الزعماء المسلمين، وكان بينهم كذلك مسيحيون ينتمون إلى التيار القومي العربي. وكان من أخطر ما قرره المؤتمرون يومذاك عدم الاعتراف بلبنان الكبير، وذلك بالإعلان عن انضمام أربعة أفضية تشمل بيروت والساحل الشمالي ومنطقة البقاع في شرق البلاد، إلى سوريا. لكن رياض الصلح، وهو من أوائل الداعين إلى وحدة بلاد الشام على طريق الوحدة العربية الشاملة، كان ضد ذلك الموقف. إذ كان قد بدأ يقتنع بواقعية السياسي المجرب أن من شأن ذلك الموقف أن يؤدي إلى تدمير البلدين، ويصعب عملية الوصول إلى استقلالهما وتحررهما من الانتداب، آخذاً في الاعتبار في الوقت عينه أن من الخطأ إحداث انقسام في الشعب اللبناني بين مؤيد لعروبتة، في شكل العلاقة الاتحادية مع سوريا، وبين من يريد البقاء في أسر العلاقة مع فرنسا المنتدبة. وآثر العمل على توحيد اللبنانيين والسوريين في الحركة الوطنية من أجل استقلال البلدين، وإقامة علاقات واضحة ومحددة بينهما بعد

الاستقلال. وكان يشارك رياض في موقفه ذلك ابن عمه كاظم الصلح. وهكذا فقد كان سلوك رياض الصلح بدءاً من ذلك التاريخ مختلفاً في الاستراتيجية والتكتيك عن سلوكه السابق الذي سيطر عليه همه في تحقيق وحدة البلدان العربية، ابتداءً من وحدة بلاد الشام. وكان هاجس الزعيمين العمل على إخراج اللبنانيين من أسر المشاعر والانقسامات الطائفية، للدخول في الانتماء إلى الوطن اللبناني على قاعدة أنه وطن جميع اللبنانيين بمعزل عن انتماءاتهم الطائفية. وكان ذلك الموقف مدخلاً إلى ما أصبح معروفاً في لحظة الاستقلال اللبناني بالميثاق الوطني.

على أن لميثاق عام ١٩٤٣، وهو الميثاق الذي جرى تعميمه كأساس لقيام دولة الاستقلال، كان مسبقاً بميثاق أول جرى التداول بشأنه في عام ١٩٣٨ بين عدد من رجالات لبنان من مسلمين ومسيحيين، كان محوره يوسف السودا، الشخصية المسيحية المعروفة بعقلانية موقفها من القضية الوطنية اللبنانية بارتباطها بسائر القضايا العربية.

وكان همّ رياض الصلح إذن همّاً لبنانياً في الدرجة الأولى من دون أن يفصل بين همّ اللبناني وبين اهتماماته بالشؤون العربية الأخرى. فشارك مع القيادات الوطنية السورية التي كلن جزءاً منها في الفترة السابقة، في كل المعارك الوطنية التي خاضتها. وضاعف من اهتمامه بالقضية الفلسطينية، في فترة كانت المنظمات الصهيونية تنشط لتوسيع هجرة اليهود من أوروبا إلى فلسطين. وكان قد أقام خلال زيارته المتعددة إلى فرنسا علاقات صداقة مع اليسار الفرنسي، وانتزع من قياداته إقراراً بحق لبنان وسوريا بالاستقلال.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى بعض المواقف المثيرة للدهشة في سلوك رياض الصلح اللبناني العربي في قراءته للأحداث الجارية على الصعيد العالمي، وفي تحديد موقفه منها، بوعي متقدم. وكان من أوائل ما قام به، تشجيع مجموعة من الشباب اليساريين بتشكيل حزب اشتراكي، ومساعدتهم في إقامة علاقات مع أركان اليسار الفرنسي، في ذلك العام المشهود في تاريخ فرنسا، تاريخ قيام الجبهة

الشعبية (١٩٣٦) التي شكلت حكومة يسارية من الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي وقوى يسارية وراдикаلية أخرى. ثم إنه، في ذلك العام بالذات، اتصل بكل من سلام الراسي وعساف الصباغ اللذين كانا قد شكّلا، بمبادرة من الحزب الشيوعي اللبناني، فريقاً من المناضلين للتصدي للهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتعقب ومطاردة المهاجرين والقبض عليهم، وإعادتهم إلى بلادهم الأصلية.

إلا أن ما هو أكثر إثارة للدهشة والإعجاب ما يتمثل بموقف رياض الصلح من الحرب الأهلية في إسبانيا. إذ وقف إلى جانب الجمهورية ضد القوى الداخلية والخارجية بقيادة الجنرال فرانكو. ووجّه في ذلك العام (١٩٣٦) نداءً إلى إخوانه العرب في مراكش، عندما حاول فرانكو تجنيدهم في حربه ضد الجمهورية، محذراً إياهم من الإنجرار في تلك الحرب.

لكن رياض الصلح لم يكتفِ بذلك الموقف. بل هو تابع اهتمامه بالحركة النقابية. وشجّع على تشكيل نقابات للعمال والمستخدمين، وتضامن مع الإضرابات التي كانت تطالب بحقوق هذه الفئة المقهورة في المجتمع. ولم يتردد في عام ١٩٣٧ في خوض معركته الانتخابية الأولى للبرلمان في لائحة مشتركة مع كل من نقولا شاوي أحد قادة الحزب الشيوعي ومع سعد الدين مومنة القائد النقابي الشيوعي أيضاً. ولم يحالفهم النجاح.

لقد تابع رياض الصلح معركته من أجل الاستقلال بالتحالف مع الحزب الدستوري الذي كان يرأسه الشيخ بشارة الخوري الذي أصبح في عام ١٩٤٣ أول رئيس للجمهورية في العهد الاستقلالي وكان رياض الصلح ذاته رئيس أول حكومة في دولة الاستقلال. والمعروف أن رياض الصلح قد دعا، بعد تشكيل الحكومة، رجال الصحافة ليلقي عليهم بياناً يحدد فيه معالم المرحلة الجديدة. وجاء في هذا البيان بالنص: "... إننا ندخل في مرحلة نضال جديد في سبيل الاستقلال. ومن البديهي أن يكون لمجلس النواب أولاً، ولكم وللرأي العام القسط الأوفر في معالجة مواضيع الاستقلال.. وسوف ترون بأنفسكم أن هناك مسلكاً جديداً وروحاً جديدة يتمشى مع هذا العهد الاستقلالي الدستوري".

غير أن ما هو أهم من ذلك ما جاء في البيان الوزاري الذي قرأه رياض الصلح أمام مجلس النواب، وفيه تأكيد على استقلال لبنان وتحرير دستوره من كل ما يمس استقلاله. فهو يشير، في البدء، إلى أن "رائدنا الأول في تنظيم هذا الاستقلال سيكون تأليف قلوب جميع اللبنانيين على حب وطنهم". ويشير إلى مرض الطائفية فيقول: "ومن أسس الإصلاح التي تقتضيها مصلحة لبنان العليا معالجة الطائفية والقضاء على مساوئها.. إن الساعة التي يمكن فيها إلغاء الطائفية هي ساعة يقظة وطنية شاملة مباركة في تاريخ لبنان".

إلا أن رياض الصلح لم يبقَ طويلاً في موقع رئيس الحكومة، لأسباب تتصل بالصراع السياسي الداخلي. فخلفه بعد عامين من الاستقلال عبد الحميد كرامي، الشخصية الوطنية المعروفة، والد رئيس الوزراء الأسبق الشهيد رشيد كرامي، وشقيقه رئيس الوزراء عمر كرامي. لكنه عاد فشكّل حكومة ثانية، هي الحكومة التي أشرفت على الانتخابات (١٩٤٧) المشهورة في تاريخ لبنان بأنها الانتخابات الأكثر تزويراً. وكان وزير الداخلية المشرف على عملية التزوير كميل شمعون الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية، بعد استقالة الشيخ بشارة الخوري في انتفاضة عام ١٩٥٢ وانتقاماً منه لأنه عدّل الدستور في المجلس النيابي المزور لكي يمدد ولايته. وكانت تلك الانتخابات نقطة سوداء في تاريخ رياض الصلح، رغم كل ما ارتبط بتاريخه من إنجازات وطنية، وأهمها إنجاز الاستقلال.

غير أن الفترة الأولى من توليه رئاسة الحكومة اقترنت بالاجتماع التأسيسي لجامعة الدول العربية في مؤتمر الاسكندرية في عام ١٩٤٤. وكان لبنان شريكاً في تأسيس الجامعة مع كل من سوريا والعراق والأردن ومصر والسعودية واليمن. والجدير بالذكر هنا هو أن هذا المؤتمر كان مناسبة تاريخية مهمة. إذ جرى الإقرار من قبل الدول العربية، بتحفظ سوري وحيد، بكيان لبنان بحدوده الدولية، بلداً حراً سيداً مستقلاً. ويقول رياض الصلح في بيانه أمام مجلس النواب حول هذا الإقرار بالنص: "إن لبنان يقترب من القضية العربية ويقبل على المشاركة فيها، بعد أن تفهمت شقيقاته العربيات موقفه من الوحدة تفهماً جعلها

تعترف بكيانه وحدوده الحالية دولة مستقلة ذات سيادة تامة". ويضيف إلى ذلك قوله: "والذي يهيم البلدان العربية في أمر لبنان بالدرجة الأولى ألا يكون أداة للأجنبي يستعملها بما يضر بمصلحة البلدان العربية.. فلبنان لا يقل اقتناعاً ورغبة عن بقية الأقطار العربية بفوائد التعاون المشترك..".

ثم جاءت معركة الجلاء. وكان لبنان قد أصبح، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، عضواً في الجمعية العامة للأمم المتحدة لدى تأسيسها في عام ١٩٤٥. وفور انتهاء الحرب بدأت معركة جلاء القوات الفرنسية والبريطانية من لبنان وسوريا. وكانت معركة وطنية، بامتياز. إذ اعتبرت أنها المعركة التي يستكمل بها لبنان استقلاله الحقيقي أسوة بسوريا الشقيقة في المعركة ذاتها. ونجح البلدان، بفعل الفيتو السوفياتي الذي استخدم لأول مرة في مجلس الأمن، في فرض جلاء القوات الفرنسية والبريطانية عن سوريا في ١٧ نيسان من عام ١٩٤٦ وعن لبنان في ٣١ كانون الأول من العام ذاته. وكان لرياض الصلح والوزير حميد فرنجية والقائد الشيوعي نقولا شاوي دور كبير في ذلك الانتصار، الذي استخدم فيه الشيوعيون اللبنانيون علاقاتهم مع الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان أمينه العام موريس توريث يشغل منصب نائب رئيس الحكومة التي كان يرأسها الجنرال ديغول، وكان أعضاء من مكتبه السياسي وزراء في تلك الحكومة.

استمر رياض الصلح ينتقل بين رئاسة الحكومة وبين المعارضة حتى أيامه الأخيرة، التي انتهت باغتياله في عمان (١٩٥١) من قبل عناصر تنتمي إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، انتقاماً لزعيم الحزب أنطون سعادة، الذي اتخذت حكومة رياض الصلح القرار بمحاكمته، إثر الثورة التي أعلنها سعادة ضد الحكومة اللبنانية، والحكم عليه بالإعدام وتنفيذ حكم الإعدام.

وبالتأكيد فإن سيرة رياض الصلح حافلة بالكثير الكثير من الأحداث. وهي أغنى من أن تختصرها هذه السطور. وثمة روايات من هنا ومن هناك حول علاقاته بمؤسسي دولة إسرائيل وسوى ذلك من روايات لن أدخل هنا في تفاصيلها. وسيرته حافلة بالصواب والخطأ. ويقول بعض الذين تابعوا

قضية اغتياله بأنه ذهب ضحية موافقته مع الملك عبد الله ملك الأردن، الذي اغتيل بعده بوقت قصير، موافقته على السعي لتحقيق وحدة العراق والأردن تحت التاج الملكي الهاشمي لأولاد وأحفاد شريف مكة الشريف حسين بن علي قائد الثورة العربية في مطالع الحرب العالمية الأولى .